الدكتور حسن فتح الباب في أبوظبي يحاضر عن الحداثة ويقرأ شعرا

الحداثة لم تولد من ذاتها ...
والشعراء العرب كانوا محدثين في عصورهم دائماً

حسن عبد الله

الشعر هو الملكوت الرائع ، الذي هو دائماً محور الأحاديث ، ومنبت الآراء والمواقف ، والذي حوله لا تزال المحابر تلون وجه التاريخ بالنقد والدرس ، منذ عرف الإنسان الشعر ، أي منذ بدأ يشعر ، - (بمعنى الإحساس)- الى يومنا هذا ما نزال نكتب ونقرأ . ننتقد . نتعاطف ونهاجم ، كل منا من زاوية رؤيته للشعر ، والحداثة في الشعر العربي ، هذه التي ما تزال منذ ولادتها . موضوع شك في نسبها . هذه اليتيمة القاصر . هي أيضاً موضوع حديث دائم ، وبين أيدينا محاضرة للدكتور حسن فتح الباب ، تلاها في مقر إتحاد كتاب الأمارات في ابوظبي مساء الإثنين ، السادس من الشهر الجاري ، فيها يتعرض الباحث للحداثة من خلال « قراءة جديدة في تراثنا الشعري ، مقاربة من إشكالية الحداثة والتراث » ، لكن قبل التعرض للمحاضرة لابد من التعريف بالدكتور حسن فتح ، فهو شاعر صدر له أحد عشر ديوانًا من الشعر ، ويعتبر أحد الرواد المؤسسين للقصيدة الحديثة ، وشعره صورة تتبلور فيها رؤيته لمختلف المراحل التي مرت بها الأمة العربية ، تتجسد في نصوصه الأحلام المشروعة للمواطن البسيط ، وهو ضابط سابق في الجيش المصري ، حائز على دكتوراه في الأدب العربي ، ودرس في جامعة وهران في الجزائر عشر سنوات .

في محاضرته « قراءة جديدة في تراثنا الشعري » يقول الدكتور فتح الباب : « من المسلمات المفروضة علينا أن نمر بظروف تاريخية شديدة الصعوبة والتعقيد تواجه النظام العربي ، والخطاب

فتح الباب

العربي والوعي العربي ، مما سوف ينعكس على مصير الجيل المعاصر والأجيال التالية الى مدى لا يعلمه أحد من البشر ». ويضيف الشاعر « ويقترب من هذا التصور الوضع الراهن لشعرنا المعاصر بصفة خاصة ، ذلك أنه يبدو لدى النظر العابر أن حركة الرواية والقصة في تقدم على عكس الحال في حركة الشعر ، وعلى الرغم من أن الشعر هو خلاصة الفنون وانه فن العربية الأول » ويستشهد برأي الأديب جبرا إبراهيم جبرا ، يؤكد حسن فتح الباب « أن الشعر إذا كان في انحدار ، فإن ذلك مرجعه الى عدم وجود تذبذب في مسيرة الرواية العربية ، فخط التطور في صعود دون أية تراجعات على حين نجد العكس في الشعر ، فثمة منعرجات في خطه البياني » .

ويرى الباحث « أن الخريطة الشعرية على الساحة الأدبية للوطن العربي الآن أشبه بالفسيفساء المزركشة المتداخلة ، فهناك عودة ملحوظة للشعر العمودي ، الذي بدأ يشرئب برأسه ، بعد إنحساره خلال فترة انبثاق حركة الشعر الحر منذ أواخر الأربعينات .

ويضيف « إن ما يعرف بشعر الحداثة ، أكثر قفز في فراغ مجهول ، ولعب لغوي دون آفاق ، ولا أعماق ، بسبب غلبة الدخلاء الأدعياء على المبدعين الأصلاء » ، مؤكداً على أن « قصيدة النثر وإدراجها في باب الشعر مع إنها جنس أدبي قائم بذاته وتطوير لما كان يعرف في تاريخ الإبداع العربي بالنثر الفني ، ولا خلاف في أن فيصل التفرقة بين القصيد الشعري وبين القصيد النثري هو الرطار العروضي ، ذلك الإطار الذي يجمع بين القديم وبين الجديد في الشعر مع تطوير الأخير للشكل والبنية » .

ويعتبر أن « القصيدة النثرية هي ابداع فني ، ولابد من إتاحة الحرية الى غير حد لكي يختار الفنان ما يشاء من الأطر والأدوات والأساليب ويجرب من الأشكا والبنى مايراه معبراً عن رؤيته » لكنه يؤكد على أن « الموهبة وحدها لا تكفي لتكوين مبدع ، ولكن الخبرة ضرورية لا غنى عنها ، ولا تتأتى

الضحك من غير سبب

كما أن الشاعر المحاضر هاديء في شعره ، البعيد عن الضجيج والصراخ ، فهو هاديء في سلوكه وحياته ، وعلى درجة عالية من الذوق والأخلاق .

وخلال إلقائه للمحاضرة ، توقف لبرهة ، وخاطب إثنين من الحاضرين قائلاً : لماذا يضحك الإخوان في آخر الصالة ؟ ثم استمر في إلقاء المحاضرة .

عندما إلتفت الحضور الى « الإثنين في آخر الصالة » كانا ما يزالان يضحكان من غير سبب .

لقطـــات

■ كان من المقرر أن يحاضر الدكتور حسن فتح الباب ، مساء اليوم التالي ، الثلاثاء ٧ كانون الثاني – يناير في المقر الرئيسي لإتحاد الكتب – الشارقة ، إلا أن تلبيته لدعوة فرع ابوظبي ، ارغمته على تأجيل نشاط الشارقة .

■ قدم المحاضر الإذاعي المخضرم ، وأحد أعمدة النشاط الثقافي في الإمارات ، عبد الوهاب قتاية ، وكانت المقدمة – كعادة قتاية – مؤثرة ورائعة ، وخاصة في الفقرات الخاصة بالحديث عن حسن فتح الباب ، الوطني والإنسان ، وبداياته ضابط شرطة في قرية مصرية .

وبعد المقدمة ، غادر عبد الوهاب قتاية ، قاعة الإتحاد .. مضطراً . الساعة جاوزت الثامنة ، واستديو اخبار الأمارات العربية المتحدة من ابوظبي في انتظاره ، وعما قريب نشرة أخبار التاسعة .

■ موعد المحاضرة كما أعلن في الصحف ، وعبر وسائل الإعلام كان السابعة مساءً ، إلا أنها بدأت عندما اقتربت عقارب الساعة من الثامنة ، فمتى تبدأ نشاطاتنا الثقافية في مواعيدها المعلنة ؟ .. متى نحترم الوقت ، حتى يحترمه معنا ، ويحترمنا أيضاً الجمهور؟

■ الدكتور حسن فتح الباب متنوع المواهب ، فهو شاعر وناقد ، بالإضافة الى كونه استاذاً في القانون الدولي ، وقد عرفته الساحة الثقافية العربية ، خصوصاً بعد منتصف الخمسينات ، وطيلة عقد الستينات ، إذ كان من الرعيل الأول ، الذي كان يكتب في مجلة الآداب اللبنانية ، لصاحبها سهيل إدريس .

■ هذه هي الزيارة الثانية للشاعر المحاضر الى الإمارات ، وكانت الأولى عام ١٩٨٢ ، وقد تحدث قبل المحاضرة عن الفرق في مشاهداته ، خلال الزيارتين ، ولم يأت الشاعر الى وطنه الثاني الأمارات بدعوة من جهة ثقافية رسمية ، وإنما تلبية لنداء الأبوة والحنين ، حيث أن إبنته وأحفاده في دبي ، هم أبناء الزميل الصحفي إيهاب الخضرجي .

الخبرة واكتساب التجربة الا بالمطالعة والمزيد من المطالعة لتراثنا الشعري أولاً ، ثم للتراث العالمي ثانياً » ، ويستشهد الباحث بأبيات لعدد من الشعراء الأقدمين مثل أبي تمام ، ومتمم بن نويرة ، وهو بذلك يحاول التدليل على أن هؤلاء الشعراء كانوا محدثين في شعرهم ، ولقد تركوا أثراً تراثياً رائعاً ، ويضيف في الختام « أن تلك إطلالة عاجلة على بعض كنوز تراثنا الشعري العريق رداً على المبالغة بنسبة الحداثة الى ذاتها ، وكأن نصوصها ولدت من عدم ، وعلقت في فراغ ، مع أن التجديد كان دائماً من شأن المبدعين ، وكانوا حديثين في عصورهم ، والأحرى بنا أن نصحح الأخطاء الشائعة باندثار هذا التراث فالتاريخ الإبداعي حلقات متتابعة ، لا تنقطع . فإذا إنقطعت كما نرى ذلك اليوم ، في بعض النصوص الحديثة ، التي وسمت الشعر بالهشاشة والتهافت والفجاجة فاقداً بذلك غايته بل وهويته . ■

وفي نهاية المحاضرة ألقى الدكتور حسن فتح الباب بعض قصائده .

بعض قصائده

«١» الخوف

ابصرني غار على الطريق
جبنت أن أقربه
من قبل أن تبيض لي حمامتان
ويحتفي بي عنكبوت
دخلته .. فلم أجد أفعى
وسار خلفي العنكبوت

«٢» ترانيم شجية على نهر السين

ينهمر الفرح الليلي على باريس
فأمشي متكأ فوق ذراع الحلم الآتي
وكأني تحت الأجراس الفضية أشدو
لكن القمر الثلجي على قاهرتي المسكونة
بالمقت الموصومة بالصمت
يطوقني
والأنفاس الحرى للنيل على السين
تراودني أو ترجمني
فأراني شبحاً ليلياً
في أدراج الريح السادرة الغربية
يبكي ويصلي مصلوباً
أو يصرخ ملتاعاً
دعني يارب الأرباب اللحظة هيني
أملكها
يرتد النيل إلهاً همجياً
يلقي ما بين القدمين الهابتين
بقايا جسدي
الشجر الليلي الشرفات الوردية
والقيثار الشاجي في انفاس المترو القبل الوسنى
ترتد شواظاً نارياً فوق السين
وأقواساً للنصر الهاوي
ويطوقني القمر الثلجي
تراودني حرى أنفاس النيل
وينتشر الطاعون

****

ينتشر الطاعون
حتى في المومياء الغرقى
ويفر فراعين الأقصر

من وجه الطاغية الخزفي
المأفون
تنشد وطناً في جدران «
اللوفر »
لا يتحول فيه الحرف الأخضر
ورقة توت في فخذي غانية
القصر
وينوح المتنبي في مصر
***
ألقت بي قدماً جوال مكسور
القلب
منزوف الشدو
تحت مساء قاس .. حان
يمطر أنساً .. وحشة
وعيوناً لنشاوى في بحر
الظلمات
اسارى العدل الموهوم
وبتاريخ الغرباء
فتراءى لي وطني معقوف
الخضرة
معصوب العينين
مسكوناً بالقهر الأبدي
وأحلام الفقراء وبالموت
المجاني
صعاليك وابطالاً
كهاناً ومماليك
لصوصاً ومرابين
عتاة مردة
وتقيأت صديداً
كان الهرم الأكبر يطفو فوق
الطوفان

تمثال مخضوب الشفتين
مجدوع الأنف
في ركن من ساحة بيجال
تغمره اشباح النخاسين
اسود أجوف
كان ، القمر الساجي في
قلبي ، ينزف

٣- طيبة

رجعت فرعوناً على طيبة
وكانت الآلهة الطينية الشماء
هناك منصوبة
أتعبني سكوتها المريب
ولم تكن صماء
نظرت في جبينها
طالعني وجه ابنتي
نظرت في العينين .. كانتا
عينيّ .. لكني غريب

٤- اسكندرية

لماذا تذكرتك الآن ؟ كل
البلاد سواء
و (وهران) سيدة الماء والجبل
الأخضر المتوارى
وراء جياد المساء نجاوى
عشيقين يسترقان الثواني
اسكندرية تجتاز دائرة الوهم .
مازال قلبي الذي أثقلته
الغمائم صفراء
والألق الأرجواني
يرصد صوت العصافير بين
البدايات والمنتهى
والنهايات والبدء
والرقصة المستباحة بين الأقاحي
وبين الموجات
إن الضفاف علينا تشابهت اليوم
كل الصخور التي أنقذتنا
قديماً تنادي
وكل القلاع التي غررت
بالمحبين مادت
على الرمل واعتنق الشاطئان
ولون الدماء يحاصرنا الآن
اسكندرية تخترق الحلم
سيدة الماء (وهران) في
القلب
اغنية لم تتم
وصبارة من رحيق مصفى
ولكن قلبي طريد
وأنت بعيد بعيد .. وحيد . ■